الاستشراق

التعريف :

الاستشراق تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق ، ويطلق على كل ما يبحث في أمور الشرقيين وثقافتهم وتاريخهم . ويقصد به ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي ، والتي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته . ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامة وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة ، معبرا عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما .

التأسيس وأبرز الشخصيات :

- البدايات :

- من الصعب تحديد بداية للاستشراق ، إذ أن بعض المؤرخين يعودون به إلى أيام الدولة الإسلامية في الأندلس ، في حين يعود به آخرون إلى أيام الصليبيين ، بينما يرجعه كثيرون إلى أيام الدولة الأموية في القرن الثاني الهجري . وأنه نشط في الشام بواسطة الراهب يوحنا الدمشقي في كتابين الأول : حياة محمد . والثاني : حوار بين مسيحي ومسلم . وكان هدفه إرشاد النصارى في جدل المسلمين . وأيا كان الأمر فإن حركة الاستشراق قد انطلقت بباعث ديني يستهدف خدمة الاستعمار وتسهيل عمله ونشر المسيحية .

- وقد بدأ الاستشراق اللاهوتي بشكل رسمي حين صدور قرار مجمع فيينا الكنسي عام ١٣١٢م وذلك بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية .

- لم يظهر مفهوم الاستشراق في أوروبا إلا مع نهاية القرن الثامن عشر ، فقد ظهر أولا في إنجلترا عام ١٧٧٩م ، وفي فرنسا عام ١٧٩٩م كما ادرج في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨م .

- هربر دي أورلياك (٩٣٨-١٠٠٣م) من الرهبانية البندكتية ، قصد الأندلس ، وقرأ على أساتذتها ثم انتخب – بعد عودته – حبرا أعظم باسم سلفستر الثاني ٩٩٩-١٠٠٣م فكان بذلك أول بابا فرنسي .

- في عام ١١٣٠م قام رئيس أساقفة طليطلة بترجمة بعض الكتب العلمية العربية .

- جيرار دي كريمونا ١١١٤-١١٨٧م إيطالي ، قصد طليطلة وترجم ما لا يقل عن ٨٧ مصنفا في الفلسفة والطب والفلك وضرب الرمل .

- بطرس المكرم ١٠٩٤-١١٥٦م فرنسي من الرهبانية البندكتية ، رئيس دير كلوني ، قام بتشكيل جماعة من المترجمين للحصول على معرفة موضوعية عن الإسلام . وقد كان هو ذاته وراء أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية ١١٤٣م التي قام بها الإنجليزي روبرت أوف كيتون.

- يوحنا الإشبيلي : يهودي متنصر ظهر في منتصف القرن الثاني عشر وعني بعلم التنجيم ، نقل إلى العربية أربعة كتب لأبي معشر البلخي ١١٣٣م وقد كان ذلك بمعاونة إدلر أوف باث .

- روجر بيكون ١٢١٤-١٢٩٤م إنجليزي ، تلقى علومه في أكسفورد وباريس حيث نال الدكتوراه في اللاهوت ، ترجم عن العربية كتاب مرآة الكيمياء نورمبرج ١٥٢١م .

- رايموند لول ١٢٣٥-١٣١٤م قضى تسع سنوات ١٢٦٦-١٢٧٥م في تعلم العربية ودراسة القرآن وقصد بابا روما وطالبه بإنشاء جامعات تدرس العربية لتخريج مستشرقين قادرين على محاربة الإسلام . ووافقه البابا . وفي مؤتمر فينا سنة ١٣١٢م تم إنشاء كراس للغة العربية في خمس

جامعات أوربية هي : باريس ، اكسفورد ، ويولونيا بإيطاليا ، وسلمنكا بأسبانيا ، بالإضافة إلى جامعة البابوية في روما .

- قام المستشرقون بدراسات متعددة عن الإسلام واللغة العربية والمجتمعات المسلمة . ووظفوا خلفياتهم الثقافية وتدريبهم البحثي لدراسة الحضارة الإسلامية والتعرف على خباياها لتحقيق أغراض الغرب الاستعمارية والتنصيرية .

- وقد اهتم عدد من المستشرقين اهتماما حقيقيا بالحضارة الإسلامية وحاول أن يتعامل معها بموضوعية . وقد نجح عدد قليل منهم في هذا المجال . ولكن حتى هؤلاء الذين حاولوا أن ينصفوا الإسلام وكتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم لم يستطيعوا أن ينفكوا من تأثير ثقافاتهم وعقائدهم فصدر منهم ما لا يقبله المسلم . وهذا يعني أن أي تصنيف للمستشرقين إلى منصفين ومتعصبين هو أمر تختلف حوله الآراء . فقد يصدر ممن عرف عن الاعتدال قولا أو رأيا مرفوضا ، وقد يحصل العكس فتكون بعض آراء المتعصبين إنصافا جميلا للإسلام ، ولهذا نتوقع أن تكون بعض الأسماء التي شملها تصنيفنا الآتي محل نظر .

<u>مستشرقون منصفون :</u>

- هادريان ريلاند ت١٧١٨م أستاذ اللغات الشرقية في جامعة أوترشت بهولندا ، له كتاب الديانة المحمدية في جزأين باللغة اللاتينية ١٧٠٥م ، لكن الكنيسة في أوروبا وضعت كتابه في قائمة الكتب المحرم تداولها .

- يوهان ج. رايسكه ١٧١٦-١٧٧٤م هو مستشرق ألماني جدير بالذكر ، اتهم بالزندقة لموقفه الإيجابي من الإسلام ، عاش بائسا ومات مسلولا ، وإليه يرجع الفضل في إيجاد مكان بارز للدراسات العربية بألمانيا .

- سلفستر دي ساسي : ١٨٣٨م اهتم بالأدب والنحو مبتعدا عن الخوض في الدراسات الإسلامية، وإليه يرجع الفضل في جعل باريس مركزا للدراسات العربية ، وكان ممن اتصل به رفاعة الطهطاوي .

- توماس أرنولد ١٨٦٤-١٩٣٠م إنجليزي ، له الدعوة إلى الإسلام الذي نقل إلى التركية والأردية والعربية .

- غوستاف لوبون : مستشرق وفيلسوف مادي ، لا يؤمن بالأديان مطلقا ، جاءت أبحاثه وكتبه الكثيرة متسمة بإنصاف الحضارة الإسلامية مما دفع الغربيين إلى إهماله وعدم تقديره .

- زيجريد هونكه : اتسمت كتابتها بالإنصاف وذلك بإبرازها تأثير الحضارة العربية على الغرب في مؤلفها الشهير شمس العرب تسطع على الغرب .

- ومن المعتدلين : جاك بيرك، أنا ماري شمل، وكارلايل ، ورينيه جينو ، والدتور جرينيه وجوته الألماني .

- أ.ج. أربري ، من كتبه الإسلام اليوم صدر ١٩٤٣م ، وله التصوف صدر ١٩٥٠م ، وترجمة معاني القرآن الكريم .

__مستشرقون متعصبون:__

- جولد زيهر ١٨٥٠-١٩٢٠م مجري يهودي ، من كتبه تاريخ مذاهب التفسير الإسلامي ، والعقيدة والشريعة ، ولقد أصبح زعيم الإسلاميات في أوروبا بلا منازع .

- جون ماينارد أمريكي ، متعصب ، من محرري مجلة الدراسات الإسلامية .

- ص م. زويمر مستشرق مبشر ، مؤسس مجلة العالم الإسلامي الأمريكية ، له كتاب الإسلام تحد لعقيدة صدر ١٩٠٨م ، وله كتاب الإسلام عبارة عن مجموعة مقالات قدمت للمؤتمر التبشيري الثاني سنة ١٩١١م في لكهنئو بالهند .

- غ. فون. غرونباوم ألماني يهودي ، درس في جامعات أمريكا ، له كتاب الأعياد المحمدية ١٩١٥م ودراسات في تاريخ الثقافة الإسلامية ١٩٥٤م .

- أ.ج. فينسينك عدو للإسلام ، له كتاب عقيدة الإسلام ١٩٣٢م ، وهو ناشر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي في لغته الأولى .

- كينيث كراج أمريكي ، متعصب ، له كتاب دعوة المئذنة ١٩٥٦م .

- لوي ماسينيون فرنسي ، مبشر ، مستشاراً في وزارة المستعمرات الفرنسية لشؤون شمال أفريقيا ، له كتاب الحلاج الصوفي شهيد الإسلام ١٩٢٢م .

- د.ب. ماكدونالد أمريكي ، متعصب مبشر ، له كتاب تطور علم الكلام والفقه والنظرية الدستورية ١٩٣٠م ، وله الموقف الديني والحياة في الإسلام ١٩٠٨م .

- مايلز جرين سكرتير تحرير مجلة الشرق الأوسط .

- د.س. مرجليوث ١٨٨٥-١٩٤٠م إنجليزي ، متعصب ، من مدرسته طه حسين وأحمد أمين ، وله كتاب التطورات المبكرة في الإسلام صدر ١٩١٣م ، وله محمد ومطلع الإسلام صدر ١٩٠٥م وله الجامعة الإسلامية صدر ١٩١٢م .

- بارون كارادي فو فرنسي ، متعصب ، من كبار محرري دائرة المعارف الإسلامية .

- هـ. أ. ر. جب ١٨٩٥-١٩٦٥م إنجليزي ، من كتبه المذهب المحمدي ١٩٤٧م والاتجاهات الحديثة في الإسلام ١٩٤٧م .

- ر.أ. نيكولسون إنجليزي ، ينكر أن يكون الإسلام دينا روحيا وينعته بالمادية وعدم السمو الإنساني ، وله كتاب متصوفوا الإسلام ١٩١٠م وله التاريخ الأدبي للعرب ١٩٣٠م .

- هنري لامنس اليسوعي ١٨٧٢-١٩٣٧فرنسي ، متعصب ، له كتاب الإسلام وله كتاب الطائف ، من محرري دائرة المعارف الإسلامية .

- دوزيف شاخت ألماني متعصب ضد الإسلام ، له كتاب أصول الفقه الإسلامي .

- بلاشير : كان يعمل في وزارة الخارجية الفرنسية كخبير في شؤون العرب والمسلمين .

- ألفردجيوم إنجليزي ، متعصب ضد الإسلام من كتبه الإسلام .

- الأفكار والمعتقدات :

أهداف الاستشراق

- الهدف الديني :

كان هذا الهدف وراء نشأة الاستشراق ، وقد صاحبه خلال مراحله الطويلة ، وهو يتمثل في :

١) التشكيك في صحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، والزعم بأن الحديث النبوي إنما هو من عمل المسلمين خلال القرون الثلاثة الأولى ، والهدف الخبيث من وراء ذلك هو محاربة السنة بهدف إسقاطها حتى يفقد المسلمون الصورة التطبيقية الحقيقية لأحكام الإسلام ولحياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبذلك يفقد الإسلام أكبر عناصر قوته .

٢) التشكيك في صحة القرآن والطعن فيه ، حتى ينصرف المسلمون عن الاتقاء على هدف واحد يجمعهم ويكون مصدر قوته وتنأى بهم اللهجات القومية عن الوحي باعتباره المصدر الأساسي لهذا الدين (تنزيل من حكيم حميد) .

٣) التقليل من قيمة الفقه الإسلامي واعتباره مستمدا من الفقه الروماني .

٤) النيل من اللغة العربية واستبعاد قدرتها على مسايرة ركب التطور وتكريس دراسة اللهجات لتحل محل العربية الفصحى .

٥) إرجاع الإسلام إلى مصادر يهودية ونصرانية بدلا من إرجاع التشابه بين الإسلام وهاتين الديانتين إلى وحدة المصدر .

٦) العمل على تنصير المسلمين .

٧) الاعتماد على الأحاديث الضعيفة والأخبار الموضوعة في سبيل تدعيم آرائهم وبناء نظرياتهم .

٨) لقد كان الهدف الاستراتيجي الديني من حملة التشويه ضد الإسلام هو حماية أوروبا من قبول الإسلام بعد أن عجزت عن القضاء عليه من خلال الحروب الصليبية .

- ***الهدف التجاري :***

لقد كانت المؤسسات والشركات الكبرى ، والملوك كذلك ، يدفعون المال الوفير للباحثين ، من أجل معرفة البلاد الإسلامية وكتابة تقارير عنها ، وقد كان ذلك جليا في عصر ما قبل الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي في القرنين التاسع والعشرين .

- الهدف السياسي يهدف إلى :

١) إضعاف روح الإخاء بين المسلمين والعمل على فرقتهم لإحكام السيطرة عليهم .

٢) العناية باللهجات العامية ودراسة العادات السائدة لتمزيق وحدة المجتمعات المسلمة .

٣) كانوا يوجهون موظفيهم في هذه المستعمرات إلى تعلم لغات تلك البلاد ودراسة آدابها ودينها ليعرفوا كيف يسوسونها ويحكمونها .

٤) في كثير من الأحيان كان المستشرقون ملحقين بأجهزة الاستخبارات لسبر غور حالة المسلمين وتقديم النصائح لما ينبغي أن يفعلوه لمقاومة حركات البعث الإسلامي .

- الهدف العلمي الخالص :

بعضهم اتجه إلى البحث والتمحيص لمعرفة الحقيقة خالصة ، وقد وصل بعض هؤلاء إلى الإسلام ودخل فيه ، نذكر منهم :

١) توماس أرنولد الذي أنصف المسلمين في كتابه الدعوة إلى الإسلام .

٢) المستشرق الفرنسي رينيه فقد أسلم وعاش في الجزائر وله كتاب أشعة خاصة بنور الإسلام مات في فرنسا لكنه دفن في الجزائر .

أهم المؤلفات :

- تاريخ الأدب العربي : كارل بروكلمان ت١٩٥٦م .

- دائرة المعارف الإسلامية : ظهرت الطبعة الأولى بالإنجليزية والفرنسية والألمانية وقد صدرت في الفترة ١٩١٣-١٩٣٨م ، غير أن الطبعة الجديدة قد ظهرت بالإنجليزية والفرنسية فقط من عام ١٩٤٥-م وحتى عام ١٩٧٧م .

- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف والذي يشمل الكتب الستة المشهورة بالإضافة إلى مسند الدارمي وموطأ مالك ومسند أحمد بن حنبل وقد وضع في سبعة مجلدات نشرت ابتداء من عام ١٩٣٦م .

- لقد بلغ ما ألفوه عن الشرق في قرن ونصف قرن (منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين) ستين ألف كتاب .

المؤتمرات والجمعيات :

- عقد أول مؤتمر دولي للمستشرقين في باريس سنة ١٨٧٣م .

- تتابعت المؤتمرات بعد ذلك حتى بلغت أكثر من ثلاثين مؤتمرا دوليا ، فضلا عن الندوات واللقاءات الإقليمية الكثيرة الخاصة بكل دولة من الدول كمؤتمر المستشرقين الألمان الذي عقد في مدينة درسدن بألمانيا عام ١٨٤٩م ، وما تزال تنعقد مثل هذه المؤتمرات باستمرار حتى الآن .

- يحضر هذه المؤتمرات مئات من العلماء المستشرقين ، حيث حضر مؤتمر أكسفورد تسعمائة (٩٠٠) عالم من خمس وعشرين دولة وثمانين جامعة وتسع وستين جمعية علمية .

- هناك العديد من الجمعيات الاستشراقية كالجمعية الآسيوية في باريس تأسست عام ١٨٢٢م ، والجمعية الملكية الآسيوية في بريطانيا وإيرلندا عام ١٨٢٣م ، والجمعية الشرقية الأمريكية عام ١٨٤٢م والجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٤٥م .

المجلات الاستشراقية :

للمستشرقين اليوم من المجلات والدوريات عد هائل يزيد على ثلاثمائة مجلة متنوعة وبمختلف اللغات نذكر منها على سبيل المثال :

١) مجلة العالم الإسلامي أنشأها صمويل زويمر ت١٩٥٢م في بريطانيا سنة ١٩١١م وقد كان زويمر هذا رئيس المبشرين في الشرق الأوسط .

٢) مجلة عالم الإسلام ظهرت في بطرسبرج عام ١٩١٢م لكنها لم تعمر طويلا .

٣) مجلة ينابيع الشرق أصدرها هامر برجشتال في فيينا من ١٨٠٩ إلى ١٨١٨م .

٤) مجلة الإسلام ظهرت في باريس عام ١٨٩٥م ثم خلفتها عام ١٩٠٦م مجلة العالم الإسلامي التي صدرت عن البعثة العلمية الفرنسية في المغرب وقد تحولت بعد ذلك إلى مجلة الدراسات الإسلامية .

٥) في عام ١٩١٠م ظهرت مجلة الإسلام .

الاستشراق في خدمة الاستعمار :

- كارل هنيريش بيكر ت١٩٣٣م مؤسس مجلة الإسلام الألمانية ، قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية في أفريقيا .

- بار تولد لآشقفاخي ت ١٩٣٠م مؤسس مجلة عالم الإسلام الروسية ، قام ببحوث تخدم مصالح السيادة الروسية في آسيا الوسطى .

- الهولندي سنوك هرجرونجه ١٨٥٧-١٩٣٦م قدم إلى مكة عام ١٨٨٤م تحت اسم عبد الغفار ، ومكث مدة نصف عام ، وعاد ليكتب تقارير تخدم الاستعمار في المشرق الإسلامي ، وقد سبق له أن أقام في جاوه مدة ١٧ سنة ، وقد صدرت الصور التي أخذها لمكة والأماكن المقدسة في كتاب بمناسبة مرور مائة سنة على تصويرها .

- معهد اللغات الشرقية بباريس المؤسس عام ١٨٨٥م كانت مهمته الحصول على معلومات عن البلدان الشرقية وبلدان الشرق الأقصى مما يكل أرضية تسهل عملية الاستعمار في تلك المناطق .

- وهكذا نرى أن مثل هؤلاء المستشرقين جزء من مخطط كبير هو المخطط الصهيوني الصليبي لمحاربة الإسلام ، ولا نستطيع أن نفهمهم على حقيقتهم إلا عندما نراهم في إطار ذلك المخطط الذي يهدف إلى تخريج أجيال لا تعرف الإسلام أو لا تعرف من الإسلام إلا الشبهات ، وقد تم انتقاء أفراد من هذه الأجيال لتتبوأ أعلى المناصب ومراكز القيادة والتوجيه لتستمر في خدمة الاستعمار .

آراء استشراقية خطرة :

- جورج سيل زعم في مقدمة ترجمته لمعاني القرآن ١٧٣٦م ، أن القرآن إنما هو من اختراع محمد ومن تأليفه وأن ذلك أمر لا يقبل الجدل .

- ريتشارد بل يزعم بأن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم قد استمد القرآن من مصادر يهودية ومن العهد القديم بشكل خاص ، وكذلك من مصادر نصرانية .

- دوزي ت ١٨٨٣م : يزعم أن القرآن الكريم ذو ذوق رديء للغاية ولا جديد فيه إلا القليل ، كما يزعم أن فيه إطنابا بالغا ومملا إلى حد بعيد .

- جاء في تقرير وزير المستعمرات البريطاني أومسبي غو لرئيس حكومته بتاريخ ٩ يناير ١٩٣٨م : أن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الامبراطورية أن تحذره وتحاربه ، وليس الامبراطورية وحدها بل فرنسا أيضا ، ولفرحتنا فقد ذهبت الخلافة وأتمنى أن تكون إلى غير رجعة .

- يقول شيلدون آموس : إن الشرع المحمدي ليس إلا القانون الروماني للامبراطورية الشرقية معدلا وفق الأحوال السياسية في الممتلكات العربية ، ويقول كذلك : إن القانون المحمدي ليس سوى قانون جستنيان في لباس عربي .

- قال رينان الفرنسي : إن الفلسفة العربية هي الفلسفة اليونانية مكتوبة بأحرف عربية .

- أما لويس ماسينيون فقد كان زعيم الحركة الرامية إلى الكتابة في العامية وبالحرف اللاتيني .

- مما لا شك فيه أن للمستشرقين فضلا كبيرا في إخراج الكثير من كتب التراث ونشرها محققة مفهرسة مبوبة.

- ولا شك أن الكثير منهم يملكون منهجية علمية تعينهم على البحث .

- ولا ريب في أن لدى بعضهم صبرا ودأبا وجلدا في التحقيق والتمحيص وتتبع المسائل .

- وما على المسلم إلا أن يلتقط الخير من مؤلفاتهم منتبها إلى مواطن الدس والتحريف ليتجنبها أو ليكشفها أو ليرد عليها لأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها ، خاصة وأن الفكر الاستشراقي المعاصر قد بدأ يغير من أساليبه وقسماته من أجل المحافظة على الصداقة والتعاون بين العالم الغربي والعالم الإسلامي وإقامة حوار بين المسيحية والإسلام ، ومحاولة تغيير النظرة السطحية الغربية إلى المسلمين ، وربما كمحاولة لاستقطاب القوى الإسلامية وتوظيفها لخدمة أهدافهم فلنكن حذرين .

الجذور الفكرية والعقائدية :

لقد كان الاستشراق وليد الاحتكاك بين الشرق الإسلامي والغرب النصراني أيام الصليبيين ، وعن طريق السفارات والرحلات ويلاحظ دائما أن هناك تقاربا وتعاونا بين الثالوث المدمر : التنصير والاستشراق والاستعمار ، والمستعمرون يساندون المستشرقين والمنصرين لأنهم يستفيدون منهم كثيرا في خططهم الاستعمارية .

كان الدافع الأساسي هو الجانب اللاهوتي النصراني بغية تحطيم الإسلام من داخله بالدس والكيد والتشويه ، ولكن الاستشراق بعد ذلك وفي الآونة الأخيرة بدأ يتحلل من هذا القيد نوعا ما ليتوجه توجها أقرب إلى الروح العلمية .

الانتشار ومواقع النفوذ :

- الغرب هو المسرح الذي يتحرك فوق أرضه المستشرقون ، فمنهم الألمان ومنهم البريطانيون والفرنسيون والهولنديون والمجريون ، وظهر بعضهم في إيطاليا وفي إسبانيا ، وقد علا نجم الاستشراق في أمريكا وصارت له فيها مراكز كثيرة .

- لم تبخل الحكومات ، ولا الهيئات ولا الشركات ولا المؤسسات ولا الكنائس في يوم من الأيام في دعم حركة الاستشراق ومدها بما تحتاجه من مال ، وتأييد وإفساح الطريق أمامها في الجامعات حتى بلغ عدد هؤلاء المستشرقين آلافا كثيرة .

- لقد كانت حركة الاستشراق مسخرة في خدمة الاستعمار ، وفي خدمة التنصير وأخيرا في خدمة اليهودية والصهيونية التي يهمها إضعاف الشرق الإسلامي وإحكام السيطرة عليه بشكل مباشر أو غير مباشر .

- استطاع المستشرقون أن يتسللوا إلى المجامع العلمية وقد عين عدد كبير منهم أعضاء في هذه المجامع في سوريا ومصر ، كما استطاعوا أن يؤثروا على الدراسات العربية والإسلامية في العالم الإسلامي من خلال تلاميذهم ومؤلفاتهم .

ويتضح مما سبق :

- أن الاستشراق تيار فكري يتجه صوب الشرق ، لدراسة حضارته وأديانه وثقافته ولغته وآدابه ، من خلال أفكار اتسم معظمها بالتعصب ، والرغبة في خدمة الاستعمار ، وتنصير المسلمين ، وجعلهم مسخا مشوها للثقافة الغربية ، وذلك ببث الدونية فيهم ، وبيان أن دينهم مزيج من اليهودية والنصرانية ، وشريعتهم هي القوانين الرومانية مكتوبة بأحرف عربية ، والنيل من لغتهم ، وتشويه عقيدتهم وقيمهم ، ولكن بعضهم رأى نور الحقيقة فأسلم وخدم العقيدة الإسلامية ، وأثر في محدثيهم ، فبدأت كتاباتهم تجنح نحو العلمية ، وتنحو نهو العمق بدلا من

السطحية ، وربما صدر ذلك عن رغبة من بعضهم في استقطاب القوى الإسلامية وتوظيفها لخدمة أهدافهم الاستشراقية ، وهذا يقتضي الحذر عند التعامل مع الفكر الاستشراقي الذي يتدثر الآن بدثار الموضوعية .

إن أول ما يتبادر إلى الذهن أن كلمة الاستشراق مشتقة من كلمة شرق ، وقد أضيف إليها الألف والسين والتاء لتعني طلب الشيء فيصبح المعنى : طلب لغات الشرق وعلومه وأديانه . أو التعرف إلى العالم الشرقي من خلال الدراسات اللغوية والدينية والتاريخية والاجتماعية وغيرها . وهذا المعنى صحيح إلى حد كبير لولا أن أحد الأساتذة الكرام بحث في أصل الكلمة في معاجم اللغات الأوروبية وهي (**Orientalism**) فوجد أنها لا تعني الشرق الفلكي أو الجغرافي كما يقولون ولكن لها أصول أخرى تعني التعلم والمعرفة والتنوير ، وأن الشرق الذي تبدأ منه الشمس حركتها إنما هو منبع الرسالات السماوية ولذلك كان على الغرب أن يسعى إلى العلم والمعرفة والنور . ولدينا دليل آخر على أن الاستشراق آت من كلمة التعلم والتفهيم والتدريب أن السنة الأولى في الجامعات أو الأسابيع الأولى للموظف الجديد في وظيفته تسمى تدريب أو تعليم (**Orientation**) .

ومن أبرز من تناولوا نقد الاستشراق في العصر الحاضر بأسلوب علمي ومنهجية صارمة الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله الذي قام بعدد من الرحلات الميدانية لمعاقل الاستشراق وأقام حوارات مع الباحثين الغربيين ، ولكن جهود السباعي لم تجد من يواصلها حتى ظهر كتاب البروفيسور إدوارد سعيد الاستشراق الذي صدر باللغة الإنجليزية عام ١٩٧٨ وترجم إلى عشرات اللغات ، وقد قصد سعيد في هذا الكتاب إلى تطبيق نظرية ميشال فوكو عن العلاقة بين العلم والسلطة وأكد أن الاستشراق نظام معرفي غربي يسعى إلى السيطرة والهيمنة ، وأن الغرب خلق الشرق الذي يريد ويتصور ولم يبحث في الشرق حقيقة . ولم يسع سعيد إلى تقديم دراسة تاريخية عن هذا العلم ولكنه اختار نماذج من الاستشراق الإنجليزي والفرنسي تؤكد هذه النظرية . ومع ذلك فلا يمكن أن نخضع الاستشراق كله لهذه النظرية بالرغم من وجاهة البحث الذي قدمه سعيد .

ولعل ما قامت به جامعة الإمام من إنشاء وحدة الاستشراق والتنصير في عمادة البحث العلمي بالرياض كان نواة لإنشاء قسم الاستشراق بكلية الدعوة بالمدينة المنورة عام ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) وبدأ هذا القسم بدراسة الاستشراق من خلال التخصصات المختلفة : الدراسات العقدية والدراسات اللغوية والدراسات الفقهية ومراكز الاستشراق والتنصير وغير ذلك من التخصصات . وقد أنجزت العشرات من البحوث التكميلية وعدد من رسائل الدكتوراه في هذا المجال . ويعد هذا القسم الوحيد في العالم الإسلامي الذي يدرس الاستشراق دراسة علمية منهجية . ويرجى أن تقوم جامعات أخرى بالاهتمام بهذا الموضوع . وقد أعلن الأزهر مؤخرا عن إنشاء مركز للدراسات الاستشراقية .

أسباب ظهور الاستشراق:

مهما كان الاختلاف حول بداية الاستشراق فإن الأمر المعروف أن قيادة النصرانية التي كانت للبابوات في روما رأت تقدم الدين الإسلامي وزحفه على الممالك التي كانت تابعة لها وإقبال الأعداد الكبيرة من النصارى على الإسلام يعد خطرا كبيرا على مكانتها ونفوذها ، فكان لا بد من فهم هذا الدين الجديد للوقوف في وجهه وتحذير النصارى منه ، وثالثا لدعوة المسلمين إلى النصرانية . فبدأت ترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية بأمر بابوي . كما أن الاحتكاك الثقافي بين المسلمين والأوروبيين في الأندلس وبعد ذلك من خلال الحروب الصليبية فتح أعين الغربيين على أهمية معرفة هذا الدين .

وبدأت أوروبا تدرس الإسلام بطريقتين ، إحداهما البحث عن نقاط القوة في هذا الدين وفي أتباعه للإفادة منها في نهضة الشعوب الأوروبية ومن ناحية ثانية لمعرفة هذا الدين ونقله مشوها إلى الجماهير الأوروبية . وقد كتب كل من ريتشارد سوذرن (Richard Southern) في كتابه "صورة الإسلام في العصور الوسطى" وكتب نورمان دانيان (Norman Daniel) كتاب "الإسلام والغرب" تحدثا في كتابيهما عن الصورة القبيحة جدا والبعيدة جدا عن الحقيقة للإسلام في الكتابات الغربية التي

صدرت في العصور الوسطى ، وأنه إذا جاءت بعض الكتابات الأوروبية بعيدة عن الموضوعية ومتحيزة جدا ضد الإسلام والمسلمين فإنما ذلك للتراث الطويل والعميق في وجدان الشعوب الأوروبية ضد الإسلام .

وجاءت المرحلة الثانية لدراسة العالم الإسلامي حينما بدأت أوروبا بحملاتها الاستعمارية للعالم الإسلامي ، فجاءت حملة نابليون إلى مصر قبل مائة عام مصطحبة معها عددا كبيرا من المستشرقين . وكان هدفها كما قال محمود شاكر وكما أكدت الدكتورة ليلى عنان إجهاض أي محاولة حقيقية للنهوض في مصر والسيطرة على هذه البلاد ليس من الناحية العسكرية فحسب بل من النواحي الثقافية والفكرية والعقدية أيضا .

وبدأت بريطانيا احتلالها للهند في منتصف القرن السادس عشر . وكان الاحتلال يحتاج إلى عدد من الباحثين الغربيين الذين يعرفون البلاد الإسلامية معرفة جيدة حتى يتمكنوا من التعامل مع تلك الشعوب والسيطرة عليها . فكان هذا الدافع الاستعماري الاقتصادي ، ذلك أن أوروبا كانت في بداية نهضتها الصناعية وكانت تحتاج إلى المواد الخام بأسعار رخيصة كما كانت تحتاج إلى الأسواق لتصريف بضائعها ومنتجاتها .

وفي بداية القرن التاسع عشر أنشئت في أوروبا الجمعيات الاستشراقية فكان منها الجمعية الملكية الآسيوية البريطانية والجمعية الاستشراقية الفرنسية ثم الألمانية والأمريكية . و قبيل انتهاء القرن التاسع عشر وبالتحديد في عام ١٨٨٣م بدأت الجمعية الدولية للمستشرقين تعقد مؤتمرا عالميا كل عدة سنوات تجمع فيه عددا كبيرا من الباحثين الغربيين والمسلمين لدراسة قضايا تتعلق بالعالم الإسلامي . وما تزال هذه المؤتمرات تعقد على فترات لا تزيد على خمسة سنوات ولا تقل عن ثلاث . وظهر في أوروبا عدد من المستشرقين الكبار في نهاية القرن الثامن عشر من أمثال جولدزيهر وسيلفستر دو ساي ، وهذا الأخير أنشأ مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس عام ١٧٩٥م وأصبحت باريس

كعبة المستشرقين واصطبغ الاستشراق بالصبغة الفرنسية عدة عقود . كما أن الاستشراق الألماني ازدهر بظهور عدد من كبار المستشرقين من أمثال نولدكه وبيكر وبروكلمان وغيرهم .

وكان الاستشراق في نشاط دائم تحقيقا للمخطوطات ونشرا لكتب التراث العربي والتأليف في التاريخ الإسلامي وفي اللغة العربية وفي العقيدة الإسلامية وفي شتى المجالات التي تهتم بالعالم الإسلامي . ولكن بعد منتصف القرن الحالي ظهرت أصوات في أوروبا وأمريكا تنادي بمزيد من التخصص في الدراسات العربية الإسلامية وأن هذه الدراسات لا يمكن أن تخضع لمجال واحد . وقد أصبحت الدراسات العربية الإسلامية تتم من خلال ثمانية عشر قسما علميا في جامعة بيركلي بكاليفورنيا يتم التنسيق فيما بينها من خلال معهد دراسات الشرق الأوسط . ولذلك فإن المستشرقين اجتمعوا في المؤتمر العالمي للاستشراق الذي عقد في باريس عام ١٩٧٣م ، وفي هذا المؤتمر تم التصويت على إلغاء اسم الاستشراق وأطلق على هذه المؤتمرات منذ ذلك الحين "المؤتمر العالمي للعلوم الإنسانية حول آسيا وشمال أفريقيا" وبعد مؤتمرين تم تعديل الاسم مرة أخرى ليصبح "المؤتمر العالمي للدراسات الآسيوية والشمال أفريقية" وقد عقد المؤتمر الخامس والثلاثون في بودابست عاصمة المجر في الفترة من ٧-١٢ تموز ١٩٩٧م .

أهداف الاستشراق :

هل يريد المعرفة وحدها فقط أو إنه يريد أكثر من ذلك ؟ من غير المنطقي أن نحكم على كل الباحثين في الدراسات العربية الإسلامية (الاستشراق سابقا) بأنهم يعملون لصالح بلادهم وأجهزة المخابرات كما كان شائعا في الكتابات النقدية العربية الإسلامية . فإن المستشرقين في نظر محمود شاكر وحسين الهراوي ومحمد البهي وغيرهم لا يمكن الأخذ بها بعد أن توسع المسلمون في الاطلاع على الكتابات الاستشراقية وكان لهم لقاءات وحوارات مع هؤلاء من خلال المؤتمرات العلمية أو التدريس في الجامعات الغربية أو المراسلات . لكننا لابد أن ندرك أن العالم الغربي في حاجة إلى المعرفة الاستشراقية فهو يقدم لها الدعم المادي والمعنوي . والدليل على هذا الدعم أن الحكومة البريطانية كونت لجنتين

لدراسة أوضاع الدراسات الشرقية والأفريقية الأولى عام ١٩٤٧م بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ، والثانية عام ١٩٦١م . وقد استفادت اللجنة الثانية من تجربة الجامعات الأمريكية وظهور ما يسمى الدراسات الإقليمية أو دراسات المناطق . كما أفادت اللجنة من زيارتها لجامعتين كنديتين في هذا المجال .

قدمت كلتا اللجنتين تقريرهما إلى الحكومة البريطانية (كل تقرير فيها لا يقل عن مائتي صفحة) تقترحان مزيدا من الدعم لهذه الدراسات بتخصيص منح دراسية وتمويل لإنشاء مزيد من الأقسام العلمية وإجراء البحوث الميدانية . وأكدت الدراستان أهمية هذا الفرع المعرفي وأن البلاد بحاجة إلى متخصصين في شؤون العالم الإسلامي .

أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد بدأ اهتمامها الفعلي بالدراسات الاستشراقية المعاصرة بعد الحرب العالمية الثانية وانحسار النفوذ البريطاني في العالم الإسلامي وتلاشي إمبراطوريتها التي كانت لا تغيب عنها الشمس لتحل الولايات المتحدة محلها . وكانت بحاجة إلى الخبراء في هذا المجال فأصدرت الحكومة الأمريكية عدة مراسيم حكومية تمول بموجبها عددا من برامج الدراسات العربية والإسلامية في العديد من الجامعات الأمريكية . وقد بلغ عدد هذه الجامعات أربعا وعشرين جامعة . وتقوم هذه الجامعات بتقديم دورات في تعليم لغات الشرق الأوسط وفي تاريخ المنطقة وأوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ولدعم هذه البرامج استقدمت الولايات المتحدة العديد من الخبرات الأوروبية في هذا المجال ومن أبرزهم المستشرق هاملتون جب وجوستاف فون جونباوم النمساوي الأصل الذي قام بتأسيس مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس — أطلق اسمه على المركز فيما بعد – وقد قام هاملتون جب بتأسيس مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفارد . كما استقدمت جامعة برنستون فيليب حتى لتأسيس مركز لدراسات الشرق الأدنى .

ليس من هدف لهذه المقالة أن يقوم الجهود الاستشراقية ولكني أريد أن أخلص إلى الدروس والعبر التي يمكن أن يستخلصها المسلم من هذه الدراسات والجهود الضخمة التي يبذلها الغرب في التعرف إلى ثقافات وتاريخ وأديان وعقائد الشعوب الإسلامية . ولعل من أول هذه الدروس أنه على المسلمين أن يسعوا إلى معرفة الآخر معرفة حقيقية وأن ننهج نهج القوم في التخطيط لهذه الدراسات . ولكنني أود أن أؤكد أن القرآن الكريم قد وجه المسلمين إلى معرفة الآخر وكان الآخر في وقت نزول القرآن يتمثل في الروم والفرس وعرب الجاهلية فأوضح للمسلمين معتقداتهم وسلوكهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي .

أما الهدف الثاني ، فإن للعالم الإسلامي مصالح لدى الدول الغربية ومن واجبه أن يعرف هذه البلاد معرفة عميقة ودقيقة مبنية على دراسات علمية وميدانية حتى يتسنى له تقويم هذه المصالح والسعي إلى تحقيقها بأفضل السبل . ونحن إن لم نسعى إلى معرفتهم فإننا سنخضع للتصورات الغربية التي يريدونها وبخاصة أنهم يمتلكون معظم وسائل الإعلام والإنتاج الفكري . وقد قررت ندوة "أصيلة" أو منتدى "أصيلة" إنشاء مركز الدراسات الأمريكية ونحن بحاجة في العالم الإسلامي إلى مراكز كثيرة لدراسة العالم الغربي كله وليس الدراسات الأمريكية فحسب .

أما الأمر الأهم فإن هذه الأمة مكلفة بتعريف العالم بهذا الدين العظيم الذي أنزله الله سبحانه وتعالى إلى البشرية كافة وعلى كل فرد مسلم أن يتحمل مسئوليته في هذا الشأن كما جاء في قوله تعالى : "قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني" ، ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : "نضر الله امرءا سمع مقالتي فوعاها فأداها إلى من لم يسمعها فرب مبلغ أوعى من سامع ، أو رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه" .